إعجاز القرآن
في فكر النورسي

بقلم
أ.د. عبد الغفور محمود مصطفى
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين

تعريف بالنورسي :

هو الإمام بديع الزمان سعيد النورسي المولود في قرية نورس الواقعة شرق الأناضول سنة ١٢٩٣ هـ الموافقة ١٨٧٣ م : المتوفى في ٢٥ رمضان سنة ١٣٧٩ هـ الموافقة ١٩٦٠م . لقب بديع الزمان لظهور ذكائه ونبوغه منذ الصغر .

وقد أتقن علوم العربية وعلوم الشريعة وأضاف إلى ذلك الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلسفة وغيرها بإتقان. وأظهر عظيم الاهتمام بإنشاء جامعة للإسلاميات ومدارس للعلوم المدنية كالدينية . ونصب نفسه للإجابة عن أسئلة السائلين ، وانتقد الاستبداد ونظام الأمن فتعرض للمشاكل والإيذاء . وترك مؤلفات عديدة وضخمة منها الكلمات والمكتوبات والشعاعات واللمعات . وأهمها في التفسير والإعجاز كتابه (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) وله كتاب قيم في حوالي ٢١٠ صفحة يسمى (محاكمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة .) [1]

مفهوم الإعجاز :

الإعجاز : إثبات العجز في الغير ، ثم استعمل في لازمه وهو إظهار العجز في الغير ، وإعجاز القرآن هو إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بمثله ، فهو من إضافة المصدر لفاعله : والمفعول وما بعده محذوف للعلم به. وليس الإثبات المذكور — أو الإظهار الذي هو لازمه — مقصودا لذاته ، بل المقصود لازم ذلك ، أعني إظهار أن هذا الكتاب حق من عند الله وأن الذي جاء به رسول صادق أرسله الله تعالى ، فينتقل الناس من العلم بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله إلى العلم بأنه صادر عن الله تعالى

الذى لا يعجزه شىء ثم إلى العلم بأنه تأييد منه تعالى للآتى به وتصديق ، فعند ذلك يؤمنون بأنه رسول الله ، فيسعدون باتباعه فى الدنيا والآخرة[٢] . وكل هذا يتفق مع كلام النورسى فى شتى كتبه ، ولم يفرده بعنوان أو بمكان .

القدر المعجز :

قال النورسى : « تحقق عندى أنه ليس القرآن كله معجزة ، بل كل سورة من سوره معجزة ، وكل آية من آياته معجزة ، بل حتى كل كلمة فيه بحكم معجزة »[٣] .

وقال : « ليست آيات القرآن ولا كلماتها معجزة وحدها ، وإنما كذلك حروف القرآن »[٤] :

وقد قرر ابن حجر الهيتمى بعض ذلك فقال إن « المشاهدة قاضية بأنهم عجزوا حتى عن بعض الآية المفيد »[٥] قال : « لأن فى ارتباطها [يعنى بعضها] بما قبلها أو بعدها ، أنواعا من بدائع الحكم »[٦] وقال « فالحق أنهم عاجزون عن محاكاة آية من آياته[٨] حتى (ثم نظر)[٧] أو بعضها المفيد [يعنى بعض آية ما] مكن مع النظر لمناسبتها لما قبلا وما بعدها » وقال : « وأما التصريح بأنه لم يقع العجز إلا عن ثلاث آيات فتردده المشاهدة الخارجية ، إذ لم يسمع عن أحد قط أنه حاكى شيئا »[٩] .

وأقول : من البدهى أن النورسى لا يقصد حرفا مقطوعا عما حوله ، أو كلمة بدون مراعاة ما حولها ، بل المقصود ما يتولد من المعانى وما يوجد من أحكام مناسبة الكلمة للموضوع فلا يمكن أن يقوم غيرها مقامها ، وأن تكون تلك المعانى بحيث لا يتأتى اجتماع مثلها فى كلام بشر . ومن المعلوم أن تبديل كلمة بكلمة فى كلام البشر لا يؤثر كثيرا : أولا يؤثر بتاتا أحيانا — على المعنى وما يتبعه ،

فإذا تحصلنا على قدر من المعانى لا يتأتى مثله للبشر فالكلمات التى اشتملت عليه معجزة ، قلت أو . كثرت . وكذا المعانى الإشارية فى الحرف الواحد بما أحيط به من كلمات وما دار فى سياقه من المعانى المشار إليها . وسنجد فى كلام الله تعالى كيف أن الكلمة تخدم الموضوع ولا يقوم غيرها مقامها — وهذا إعجاز . وسنرى أيضا كيف يكون إعجاز الحرف لكن بما دار حوله كما عرفنا .

فإليك هذين المثالين :

أولا : بالنسبة إلى الكلمة : قال النورسى : « هذه الجملة [يعنى من الآية الكريمة : (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين)[١٠]] مسوقة لإظهار هول العذاب ، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله ، ولهذا فإن جميع هيئات الجملة التى تفيد التقليل تنظر إلى هذا التقليل ونمده بالقوة كى يظهر الهول :

فلفظ (لئن) هو للتشكيك ، والشك يوحى القلة .

ولفظ (مس) هو إصابة قليلة ، يفيد القلة أيضا .

ولفظ (نفحة) مادته رائحة قليلة إذ « فيفيد القلة » كما أن صيغته تدل على واحدة « أى واحدة صغيرة » كما فى التعبير الصرفى — مصدر المرة . فيفيد القلة .

وتنوين التنكير فى (نفحة) هى تقليلها ، بمعنى أنها شىء صغير إلى حد لا يعلم ، فينكر .

ولفظ (من) هو للتبعيض ، بمعنى جزء ، فيفيد القلة .

ولفظ (عذاب) هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة إلى النكال والعقاب ، فيشير إلى القلة .

ولفظ (ربك) بدلا من : القهار ، الجبار ، المنتقم ، فيفيد القلة أيضاً ، وذلك بإحساسه الشفقة والرحمة .

وهكذا تفيد الجملة أنه: إذا كان العذاب شديداً ومؤثراً مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الإلهى ؟ فتأمل فى الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة ، فيعين كل الآخر ، فكل يمد المقصد بجهته الخاصة ، هذا المثال الذى سقناه يلحظ اللفظ والمقصد »[11] .

وهذا القدر من البيان يكفى — عندى — لتأييد قول كل من النورسى والهيتمى فى إعجاز الكلمة .

ثانياً : بالنسبة إلى الحرف : قال النورسى :

« تأملت ذات يوم فى (ن) المتكلم مع الغير فى (إياك نعبد وإياك نستعين) وتحرى قلبى وبحث عن سبب انتقال صيغة المتكلم الواحد إلى صيغة الجمع (نعبد) فبرزت بغأة فضيلة صلاة الجماعة وحكمتها من تلك (النون) إذ رأيت أنه بسبب مشاركتى للجماعة فى الصلاة... يكون كل فرد منها بمثابة شفيع لى ، ورأيت أن كل فرد من أفراد تلك الجماعة شاهد ومؤيد لما أظهرته من أحكام وقضايا فى قراءتى، فولد ذلك عندى الشجاعة الكافية لكى أقدم عبادتى الناقصة دار منها مضمومة مع العبادة الهائلة لتلك الجماعة إلى الحضرة الإلهية المقدسة.

إن الجماعة التى انضممت إليها قد أصبحت ثلاث جماعات ودوائر .

الأولى : هى الجماعة الكبرى المؤلفة من المؤمنين الموحدين على وجه الأرض قاطبة .

الثانية : هى جماعة الموجودات كافة حيث (كل قد علم صلاته وتسبيحه)[12] فرأيت نفسى مع صلاتها الكبرى وفى تسبيحاتها العظمى، وأن ما يسمى وظائف الأشياء وأعمالها إن هو إلا عناوين عباداتها وعبوديتها .

وتأملت فى نفسى وفى الدائرة الثالثة ، ورأيت عالما يبدأ من ذرات وجودى وينتهى إلى حواسى الظاهرة ؛ فهو عالم صغير وصغير . إلا أنه عظيم جداً يدعو إلى الحيرة والإعجاب .

وهو عالم ظاهره متناه فى الصغر إلا أن حقيقته عظيمة ووظائفه جليلة.

نعم رأيت أن كل جماعة من جماعات هذا العالم منهمكة بوظائف عبوديتها وواجبات شكرها ، ورأيت أن اللطيفة الربانية التى هى فى تلك الدائرة فى قلبى تردد : (إياك نعبد وإياك نستعين) باسم هذه الجماعة ، مثلما رددها لسانى بنيه الجماعتين العظيمتين الأوليين .

والخلاصة أن (نون) (نعبد) تشير إلى هذه الجماعات الثلاث وتدل عليها »[13] .

وهكذا أورد النورسى شاهده على الإعجاز فى الحرف الواحد بما أحاطه من هذه الإشارات البديعية منفرداً بهذا النحو من إشارات الإعجاز وبوارق الفتوحات والإشراقات.

ولو سألنا أنفسنا : ما القدر المعجز من الإخبار بالغيب ؟ لكان الجواب : ما تقطع النفس معه بأنه لا يتأتى لولى أو كاهن أو ذكى — بدون تحديد سابق على معرفة إفادته هذا اليقين وهذا الإعجاز .

ولو أننا تأملنا خبرا واحدا قرآنيا مع ما اقترن به من ثقة القائل بنفسه — إن صح التعبير — ومن صدق الخبر وتحققه كاملا ومن معرفه أن المصدر البشرى (ﷺ) لم يعهد عليه كذب ولا تكهن ولا ما إلى ذلك — ما كان عندنا تردد فى أن هذا الخبر الذى وقع كما أخبر معجزة . وفرق شاسع بين تلجلج الكهانة ونصاعة الوحى الإلهى . إلى آخر ما نقول.

ولم يحدد العلماء — فى غالب ظنى — القدر المعجز — من جهة البيان

والفصاحة بسورة أوقدرها من آيات فى موضوع واحد ومتوالية إلا لأنه هو القدر الذى يتيسر دائماً للمتأمل أن يدرك إعجازه ، ولا يتيسر للمتأمل دائماً أن يفرد الكلمات كلمة كلمة أو أن يختار كلمة أو حرفاً وبالتأمل يدرك إعجازها أو إعجازه ، بل حتى مقدار السورة المذكور لم نر العلماء قد تيسر لهم أن يتتابعوا على تلك المقادير ليظهروا إعجاز كل مقدار ، وقصاراهم أو قصارى ما نجد أن نجد ذلك فى مقادير محصورة — أقصد أن الواقع من ذلك محصور فيما ألفه العلماء .

بل إننى أنادى أصحاب القدرة على بذل التبصرة بكتاب الله تعالى بإفراد كل سورة من السور القصيرة بالدراسة الكاشفة عن وجه — أووجوه إعجازها ، والله تعالى من وراء القصد .

وجوه الإعجاز :

ذكر السيوطى للإعجاز خمسة وثلاثين وجهاً فى كتابه (معترك الأقران فى إعجاز القرآن) ، وأضاف صاحب كتاب (القرآن يتحدى) أربعين وجهاً[١٤] ، أما النورسى فذكر أن أنواع الإعجاز أربعون منها ما هو بإزاء المعاندين[١٥] ، ولم يقصد الحصر فذكر أن أقسام الإعجاز مائتان[١٦] .

ولعله لم يقصد الحصر أيضاً ، وعلى كل حال فقد اعتنى بشرح عدد محدود منها ، وسنذكر ما يتيسر لنا من ذلك بعون الله تعالى.

النظم : قال النورسى : « وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم »[١٧] ، فالنظم عنده هو وجه وجوه الإعجاز . وقال : « إن منشأ نفوس البلاغة هو نظم المعانى دون نظم اللفظ » « ونظم المعانى عبارة عن توخى المعانى النحوية فيما بين الكلمات ، أى إذابة المعانى الحرفية بين الكلم لتحصيل النفوس الغريبة » .

« ونظم المعانى هو الذى يشيد بقوانين المنطق .. وأسلوب المنطق هو الذى يتسلسل به الفكر إلى الحقائق . . والفكر الواصل إلى الحقائق هو الذى ينفذ فى دقائق الماهيات ويسبها .. وينسب الماهيات هى الروابط للنظام الأكمل .. والنظام الأكمل هو الصدف للحسن المجرد الذى هو منبع لكل حسن . . والحسن المجرد هو الروضة لأزاهير البلاغة التى تسمى لطائف ومزايا »[١٨] .

ولم يقصد الإنصراف الكلى عن رعاية نظم اللفظ وزينته واستخدام التشبيه وما إلى ذلك ، بل قال إن (اللفظ — يزين ولكن إذا اقتضت ذلك طبيعة المعنى وحاجته ، وان صورة المعنى — التى هى اللفظ — تعظم وتعطى لها مهابة ولكن إذا أذن بها المعنى ، وإن الخيال يجول وينشط ولكن إذا لم يؤلم الحقيقة ولم يُثقل عليها وكان مثالا لها متفرعاً عليها)[١٩] ، يعنى أن لا تكون رعاية اللفظ على حساب المعنى .

وهذا هو اتجاه مدرسة النظم — الجامعة المتعمقة الحصيفة — التى نظرت إلى الكلام على أنه كعملة ذات وجهين لابد لسلامتها من سلامتهما وصحتهما .

وقد تزعمها عبد القاهر الجرجانى بجدارة وبناهة عالية ، ويقابلها مدرسة اللفظ التى لم تبال أن يكون المعنى رخيصاً ، ويمثلها مسلم ابن الوليد ، ولا يتبعها الجاحظ ، خلافاً لما قد يتوهم .

كما يقابلها مدرسة المعنى التى توليه عنايتها فى حين أنها قد ترى فى العناية باللفظ تكلفا — ولهذا انصرفت عن وضع اللفظ فى الإعتبار وترى أن العناية باللفظ — إن كانت ولا بد — فما هى إلا لخدمة المعنى ، وإلا فهو وحده الهدف .

ومن رجال هذه المدرسة ابن جنى[٢٠] ، فقد أخذ النورسى بأقوى المدارس .

والأساس الإعجازى فى النظم هو الإيجاز ، ذلك الذى ينبهر أمامه أهل التدقيق العلمى[٢١] .

وقد علمت أن المثال المبين لهذا الوجه من الإعجاز هو كذا أو كذا مما شرحناه فى بيان القدر المعجز .

وارجع هناك إلى مثال (ولئن مستهم نفحة .....) ، وأيضا تفسير النورسى المسمى إشارات الإعجاز ... كله يبين الأمثلة المعجزة من حيث النظم . وإليك هذا المثال أيضا :

قال تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون)[٢٢] ، قال النورسى : (إن هذه الجملة تشير بهيئاتها ، إلى خمسة شروط لقبول الصدقة : لشرط الأول المستفاد من (من) التبعيضية فى لفظ (مما) أى أن لا يبسط المتصدق يده كل البسط فيحتاج إلى الصدقة .

الشرط الثانى المستفاد من لفظ (رزقناهم) أى أن لا يأخذ من زيد ويتصدق على عمرو بل يجب أن يكون من ماله ، بمعنى : تصدقوا مما هو رزق لكم .

الشرط الثالث المستفاد من لفظ (نا) فى (رزقنا) أى أن لا يمن فيستكثر ، أى لا منه لكم فى التصدق ، فأنا أرزقكم ، وتنفقون من مالى على عبدى .

الشرط الرابع المستفاد من (ينفقون) أى أن ينفق على من يضعه فى حاجته الضرورية ونفقته ، وإلا فلا تكون الصدقة مقبولة على من يصرفها فى السفاهة .

الشرط الخامس المستفاد من (رزقناهم) أيضا أن يكون التصدق باسم الله ، أى المال مالى فعليكم أن تنفقوه باسمى .

ومع هذه الشروط هناك تعميم فى التصدق ، إذ كما أن الصدقة تكون بالمال تكون بالعلم أيضا وبالقول والفعل والنصيحة كذلك ، وتشير إلى هذه الأقسام كلمة (ما) التى فى (مما) بعموميتها ، وتشير إليها فى هذه الجملة بالذات ، لأنها مطلقة تفيد العموم .

وهكذا تفيد هذه الجملة الوجيزة — التى تفيد الصدقة — إلى عقل الإنسان خمسة شروط للصدقة مع بيان ميدانها الواسع ، وتشعرها بهيئاتها »[٢٣] .

هذا والتعبير بالمضارع (ينفقون) يشير إلى الدوام والاستمرار — بقدر كما عرفنا — والبر من الله تعالى دائم ومستمر وموصول بخلقه لا ينقطع عنهم طرفة عين ، ومما يشير إلى ذلك — عند من يقبله — كون ضمير العظمة موصولا بضمير الناس وصلا عن طريق حذف ألفه فى رسم المصحف — ولا يدوم بره موصولا إلا العظيم — جل جلاله — والتعبير بالماضى فى فعله تعالى (رزقنا) يشير إلى أنه أمر ، قد قدر[٢٤] ، (وفى السماء رزقكم وما توعدون)[٢٥] (جف القلم بما هو كائن)[٢٦] ، وقد كتبت الملائكة فى ألواحها الفرعية رزق الإنسان فيما كتبت[٢٧] وأيضا يشير إلى موصولية رزق الله تعالى لعباده مجىء ضمير العظمة ، موصولا وضمير المرزوق موصولا به ، فالضميران موصولان بالفعل .

فالنظم هو وجه وجوه الإعجاز حقا عند عامة العلماء .

هذا وللنورسى إفاضات فى إضاءة جوانب النظم البليغ الذى إذا كان قرآنا كان معجزا وإلا كان فائقا ، وكانت جهوده أمراً يحقق لنا أنه قصد فعلا اللفظ والمعنى لا واحداً منهما فقط ، فليطلب من يشاء كلامه الرائع والفريد عن أسباب رفعة الكلام ومنها (استعداده للاستنباطات الكثيرة)[٢٨] وعما أسميه (مراتب المعانى — ودوالها) فبعضها كالهواء

يحس به ولا يرى[٢٩] إلخ ، وعن قوة الكلام فى التجاوب بين أجزائه والمعانى ، فالنظم والهيئة متعاونان فى مد الغرض الكلى[٣٠] إلخ ، كما رأيناه فى مثال (ولئن مستهم نفحة ...) وغيره كثير ، وعن (سلاسة الكلام)[٣١] وعن (سلامه الكلام)[٣٢] ، وعما أسمية (ذاتيات البلاغة العليا — المعجزة) بأن ينظر المتكلم دفعة واحدة نسب قيود الكلام .. فيكون كل رابط مظهر المعنى ، وينتهى الحال إلى نقش متسلسل إلى النقش الأعظم ، كأن المتكلم ضم إلى عقله عقولا ، وهذا فى القرآن مما يعجز الفكر الشخصى والإرادة الجزئية[٣٣] إلخ ، كل هذا بالإضافة إلى ما قاله عن (غنى الكلام وثروته واتساعه) بأن تشير أركانه إلى المعانى الأصلية وفروعه إلى توابع العرض[٣٤] إلخ ، وعن (الأسلوب وسر تأثيره) من حيث إنه قالب المعانى وإنسه يستدعيها بمناسبات النظام والترابط[٣٥] إلخ ، وعن (أنواع الأساليب ، وخاصة كل نوع ، ومجال استعماله)[٣٦] ، وفى صولات النورسى ، وجولاته بيان (إمالة الكلام — ظاهراً — إلى ما يخالف الدليل)[٣٧] ، وهو كلام لا أعلمه لغيره ، وقد شرحته ودعمته فى بعض بحوثى[٣٨] ، وهو نفيس حقا فيما أحسب ، وبهذا تجلى لنا أنه وفى هـذا الوجه حقه من جميع نواحيه .

الحروف المقطعة :

الحروف المقطعة فى فواتح السور مثل: (الم — حم — ص) نصف حروف الهجاء ، وهى أكثر استعمالا وأيسر على الألسنة من النصف الآخر .

ولحروف الهجاء صفات منها عشر أزواج كالجهر والهمس فهما زوج وهما اثنتان من عشر ، ومنها سبع أفراد كالقلقلة ، والذى وقع فى فواتح السور يبلغ النصف من كل زوج ، فمثلا الجهر حروفه (١٨) وقع منها (٩)

والهمس (١٠ أحرف) وقع منها خمس ، ويبلغ النصف أيضا من حروف كل صفة من السبع الأفراد ، لكنه ليس نصفا بالميزان ، بل إن كانت الصفة ثقيلة جاء نصفها الصغير وإن كانت خفيفة جاء نصفها الثقيل أو الكبير ، كالقلقلة ثقيلة وحروفها خمسة فجاء منها فى الفواتح اثنان ، وكالذلاقة صفة خفيفة وحروفها ستة فوقع منها أربعة .

وهذا توازن عجيب لا نظنه غير مقصود ، لكنى فى نفس الوقت لا أظنه وحده كافيا فى تحقق الإعجاز ، بل يضم إليه كل ما يأتى عن هذه الحروف — أو بعض ما يأتى ، حتى يكتمل لنا ما يقع فى نفوسنا أنه قدر إعجازى .

فإليك بقية الكلام :

لحروف الهجاء أيضا طبائع وخواص ، ومن طبائعها ما هو ألطف سجية ، وهو الذى وقع فى الفواتح ، وهو نصف حروف الهجاء ، ولو أردت أن تأخذ نصف حروف الهجاء بطريقة عشوائية كان أمامك (٥٠٤ احتمال) منها أن النصف الأول أو الأخير على ترتيب أ ب ت ث أو أ ب ج د ، أما أن تأخذ النصف ويكون هو الألطف فليس أمامك من تلك الاحتمالات إلا طريقة واحدة هى التى اختارها القرآن فى هذه المقطعات لأن التقسيمات الكثيرة متداخلة مشتبكة ومتفاوتة ، ففى تنصيف كل من ذلك غرابة عجيبة .

هكذا قال النورسى[٣٩] ، وأقول :

هناك توازن يحقق الاعتدال بين لطافة السجية وكثافتها ، أراه فى ضوء ما قالوه عن طبائع الحروف واقعاً فى تلك المقطعات ، فإن الطبائع أربعة ، طبع النار ، وهو أشدها لأنه حار يابس ، ويقابله طبع الماء لأنه بارد رطب ، والواقع فى الفواتح أربعة من سبعة من كل منهما ، هى من

الأول (أ ط م ه) ، والباقى (ذ ش ف) ، ومن الثانى (ح ر ع ل) ، والباقى (خ د غ) ، ومن كل طبع من المتوسطين ثلاثة من سبعة ، من طبع التراب وهو بارد يابس : (ص ن ى) ، والباقى (ب ت ض و) ، ومن طبع الهواء وهو حار رطب : (س ق ك) ، والباقى (ث ج ز ظ) .

وهذا حقا غريب عجيب ، ويعرفه من يعرفه من كبار علماء اللغة والتفسير والعرفان(٤٠) .

ومن مجرد إيراد هذا النهجى فى الفواتح ذكر النورسى لطائف، منها «أن النهجى بالتقطيع تلميح إلى إرادة مادة الصنعة ، كإلقاء القلم والقرطاس لمن يعارضك فى الكتابة ، كأن القرآن يقول : أيها المعاندون المدعون إنكم أمراء الكلام ، هذه المادة التى بين أيديكم هى التى أصنع فيها ما أصنع(٤١)» أى فهل تدركون فتؤمنون ؟ فقد ألفتم الآلاف من الكتب ولم تنالوا من الإعجاز ذرة . ويا أيها الأحباب المشتاقون قد ألفتم الآلاف من الكتب شوقا إلى شرف التقليد وما زادكم إلا إيمانا وتسليما وما كان إلا تو كيدا للإعجاز بعد تو كيد(٤٢) .

«ومنها أن التهجى أساس القراءة ومبدؤها يخص المبتدئين بالقراءة، فيومىء إلى أن القرآن مؤسس لطريق خاص ومعلم لأمتين»(٤٣) .

«ومنها أن التقطيع إشارة إلى أن قيمة الحروف ليست فى معانيها فقط بل بينها مناسبات فطرية كمناسبة الأعداد ، كشفها علم أسرار الحروف(٤٤) .

(فمن نظر ولم يدرك الإعجاز فى بعض ذلك أو فى جملته فليقلد فتاوى أهل الصنعة)(٤٥) .

نعم هذه أسرار لا تكون من أمى ، ولا صدفة ، ولا تدخل فى طاقة بليغ قدير ، وإن هى إلا تقدير العزيز العليم لكتابه معجز الثقلين .

التكرارات : قال :

«اعلم أن القرآن لأنه كتاب ذكر ، وكتاب دعاء ، وكتاب دعوة ، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم ، وليس كما ظنه القاصرون ، إذ الذكر يكرر ، والدعاء يردد ، والدعوة تؤكد ، إذ فى تكرير الذكر تنوير ، وفى ترديد الدعاء تقدير ، وفى تكرار الدعوة تأكيد .

واعلم أنه لا يمكن لأحد فى كل وقت قراءة تمام القرآن الذى هو دواء وشفاء لكل أحد فى كل وقت ، فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية إلى أكثر صور ، لاسيما الطويلة منها ، حتى صارت كل سورة قرآنا صغيرا ، فسهل السبيل لكل أحد ، دون أن يحرم أحدا ، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه السلام .

اعلم أنه كما أن الحاجات الجسمانية مختلفة فى الأوقات : فإلى قسم فى كل آن كـ (هو الله) للروح ، كحاجة الجسم إلى الهواء ، وإلى قسم فى كل ساعة كـ (بسم الله) وهكذا فقس .

فتكرار الآيات والكلمات إذن للدلالة على تكرر الاحتياج ، وللإشارة إلى شدة الاحتياج ، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه ، وللتشويق على الاحتياج ، ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية .

اعلم أن القرآن مؤسس لهذا الدين العظيم المتين ، وأساسات لهذا العلم الإسلامى . ومقلب لاجتماعيات البشر ومحولها ومبدلها . وجواب لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة للبشرية بألسنة الأقوال والأحوال ،

ولا بد للمؤسس من التكرير للتثبيت ، ومن الترديد ، للتأكيد ، ومن التكرار للتقرير والتأييد .

اعلم أن القرآن يبحث عن مسائل عظيمه ويدعو القلوب إلى الإيمان بها ، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها ، فلابد لتقريرها فى القلوب وتثبيتها فى أفكار العامة من التكرار فى صور مختلفة وأساليب متنوعة .

اعلم أن لكل آية ظهرا وبطنا وحدا مطلعا(٤٦) ، ولكل قصة وجوها وأحكاما وفوائد ومقاصد ، فتذكر فى موضع لوجه وفى آخر لآخر ، وفى سورة لمقصد وفى أخرى لآخر ، وهكذا ، فعلى هذا لا تكرار إلا فى الصورة(٤٧) .

« إن تكرر الحاجة يستلزم التكرار ، هذه قاعدة ثابتة ، لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة كثيرة خلال عشرين سنة فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين . فهو يكرر جملا تملك ألوف النتائج ، ويكرر إرشادات هى نتيجة لأدلة لاحدلها ، وذلك عند ترسيخه فى الأذهان وتقريره فى القلوب ماسيحدث من انقلاب عظيم وتبدل رهيب فى العالم وما سيصيبه من دمار وتفتت الأجزاء ، وماسيعقبه من بناء الآخرة الخالدة الرائعة بدلا من هذا العالم الفانى ، ثم إنه يكرر تلك الجملة والآيات أيضاً عند إثباته ، أن جميع الجزئيات والكليات ابتداء من الأذرات إلى النجوم إنما هى فى قبضة واحد أحد سبحانه وضمن تصرفه جل شأنه ويكررها أيضاً عند بيانه الغضب والسخط ، الربانى على الإنسان المرتكب للمظالم عند خرقه الغاية من الخلف ، تلك المظالم التى تثير هيجان الكائنات والأرض والسماء والعناصر وتؤجج غضبها على مقترفيها ، لذا فإن تكرار تلك الحجة والآيات عند بيان أمثال هذه الأمور العظيمة الهائلة لما يعد نقصا فى البلاغة .. بل هو إعجاز فى غاية الروعة والإبداع ، وبلاغة فى غاية

العلو والرفعة ، وجزالة — بل فصاحة — مطابقة تطابقا تاما لمقتضى الحال ، فعلى سبيل المثال : إن جملة (بسم الله الرحمن الرحيم) هى آية واحدة تتكرر مائة وأربع عشرة مرة فى القرآن الكريم ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياء وتشد العرش برباط وثيق ، فما من أحد إلا وهو بحاجة مسيسة إلى هذه الحقيقة فى كل حين ، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات ، فالحاجة مازالت قائمة باقية لا ترتوى ، إذ ليست فى حاجة يومية كالخبز ، بل هى أيضا كالهواء والضياء الذى يضطر إليه ، ويشتاق كل دقيقة ، وإن الآية الكريمة (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) تتكرر ثماني مرات فى سورة الشعراء ، فتكرار هذه الآية العظيمة التى تنطوى على آلاف الحقائق فى سورة تذكر نجاة الأنبياء عليهم السلام وعذاب أقوامهم إنما هو لبيان .

أن مظالم أقدامهم تمس الغاية من الخلف ، وتتعرض إلى عظمة الربوبية المطلعة ، فتقتضى العزة الربانية عذاب تلك الأقوام الظالمة مثلما تقتضى الرحمة الإلهية نجاة الأنبياء عليهم السلام ، فلقد تكررت هذه الآية ألوف المرات لما انقضت الحاجة والشوق إليها ، فالتكرار هنا بلاغة وافية ذات إعجاز وإيجاز .

وكذلك الآية الكريمة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) المكررة فى سورة « الرحمن » ، والآية الكريمة « ويل يومئذ للمكذبين » المكررة فى سورة المرسلات ، تصرخ كل منهما فى وجه العصور قاطبة وتعلن إعلانا صريحا فى أقطار السموات والأرض أن كفر الجن والإنس وجحودهم بالنعم الإلهية ، ومظالمهم الشنيعة يثير غضب الكائنات ويجعل الأرض والسموات فى حنق وغيظ عليهم ... ويخل بحكمة خلف العالم والقصد منه ، ويتجاوز حقد فى المخلوقات كافة ويتعدى عليها ، ويستخف بعظمة الألوهية وينكرها ، لذا فهاتان الآيتان ترتبطان بألوف من أمثال هذه الحقائق ولهما من الأهمية ما لألوف المسائل وقوتها .

لو تكررنا ألاف المرات فى خطاب عام مدجه إلى الجن والإنس لكانت الضرورة قائمة بعد ، والحاجة إليها ما زالت موجودة باقية ، فالتكرار هنا بلاغة موجزة جليلة . ومعجزة جميلة »[٤٨] .

وزيادة فى بيان بعض ما مضى أقول : إن تكرير الآية الكريمة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ليس تكراراً حقيقياً ، فإنها فى كل مرة تعقب نعما جديدة ، فالله تعالى يقولها عقب كل فصل منها مخاطباً الإنس والجن ، فإن قيل : كيف جاءت بعد ذكر العذاب ؟ فالجواب أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكره ووصفه والإنذار به من أكبر النعم ، لأن فى ذلك زاجرا عما يستحق به العقاب ، وبعثا على ما يستحق به الثواب ، فإيراد هذه الآية الكريمة بعد ذكر جهنم وما فيها من العذاب — هذا الإيراد — يشير إلى نعمته تعالى بوصفها والإنذار بعقابها . وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة ، أما مجيئها بعد ذكر الفناء فقيل : أى نعمة فيه ؟ وأجيب بأجوبة أحسنها : التنقل من دار الغموم إلى دار السرور ، وإراحة المؤمن والناس من الفجار ، كما وردت به الأحاديث[٤٩] .

الإعجاز الدستورى :

(القرآن الكريم دستور جاء من الأزل ويبقى إلى الأبد بالتالى . وهو قوى الشباب دائمـــة)[٥٠] . و « إن المدينة بكل جمهياتها الخيرية وأنظمتها الصارمة ... ومؤسساتها التربوية الأخلاقيـــة لم تستطع أن تعارض[٥١] (القرآن الكريم . وعلى سبيل المثال نذكر عدة نقاط :

النقطة الأولى حول :

الحياة الاقتصادية : ونتكلم عنها من زاويتين : الزاوية الأولى بخصوص قوله تعالى (وآتوا الزكاة)[٥٢] ، والزاوية الثانية بخصوص قوله تعالى

وأحل الله البيع وحرم الربا)[٥٣] ، فإن الإعجاز يظهر من كل منهما ، كما سيتضح : [قال النورسى] : « إن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات فى المجتمع الإنسانى إنما هو كلمة واحدة ، كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضاً » .

الكلمة الأولى : (إن شبعت فلا على أن يموت غيرى من الجوع) .

الكلمة الثانية : (أكتسب أنت لآكل أنا ، وأتعب أنت لأستريح أنا)

إن الكلمة الأولى قد ساقت الحواص إلى الظلم والفساد .

ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصراع . فسلبت البشرية الراحة والأمان »[٥٤] ، (ولم تستطع المدنية أن تصلح بين هاتين الطبقتين ، وعجزت عن تضميد الجراح الغائرة فى الحياة البشرية)[٥٥] .

« أما القرآن الكريم فإنه يقلع الكلمة الأولى من جذورها ويداويها بوجوب الزكاة .

ويقلع الكلمة الثانية من أساسها ويداويها بحرمة الربا »[٥٦] . وهذا إعجاز تشريعى قرآنى يتحدى البشرية أن تهتدى وتستريح بتشريع غيره ، فانظر كيف كانت كلمتان قرآنيتان اثنتان — أو حكمان — ينتجان الإعجاز ، فضلا عن سائر الشواهد مما نذكر ، وأيضاً مما لا نذكر .

النقطة الثانية حول تعدد الزوجات : « إن المدنية الحاضرة لا تقبل تعـــدد الزوجات ، وتحسب ذلك الحكم القرآنى مخالفا للحكمة ومنافيا لمصلحة البشر »[٥٧] .

« إن الحكمة من الزواج والغاية منه إنما هى التكاثر وإنجاب النسل . أما اللذة الحاصلة من قضاء الشهوة فهى أجرة جزئية تمنحها الرحمة الإلهية

لتأدية تلك المهمة . فما دام الزواج للتكاثر وإنجاب النسل ولبقاء النوع — حكمة وحقيقة — فلا شك أن المرأة التى لا تمكن أن تلد إلا مرة واحدة فى السنة ولا تكون خصبة إلا نصف أيام الشهر وتدخل سن اليأس فى الخمسين من عمرها لا تكفى الرجل الذى له القدرة على الإخصاب فى أغلب الأوقات حتى وهو ابن مائة سنة ، لذا تضطر المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش،(٥٨) أما دستور القرآن فهو النظافة والحكمة وفوز الموازين ، وهذا إعجاز ، لا يأتى بمثله — ولا يسمح بمثله — كل دساتير الأرض وفلسفات الأرض ، وأنى لهم ؟ .

النقطة الثالثة حول نصيب المرأة فى الميراث : «إن المدنية التى لا تتحاكم إلى المنطق العقلى تنتقد الآية الكريمة (للذكر مثل حظ الأنثيين)[النساء: ١١] التى تمنح النساء الثلث من الميراث (أى نصف ما يأخذه الذكر) .

ومن البديهى أن أغلب الأحكام فى الحياة الاجتماعية إنما تسن حسب الأكثرية من الناس ، فغالبية النساء يجدن أزواجا يعولونهن ويحمونهن. بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى أن يعولوا زوجاتهم ويتحملوا نفقاتهن ، فإذا ما أخذت الأنثى الثلث من أبيها (أى نصف ما أخذه الزوج من أبيه) فإن زوجها سيسد حاجتها . بينما إذا أخذ الرجل حظين من أبيه فإنه سينفق قسطا منه على زوجته، وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساويا لأخته . وهكذا تقتضى العدالة القرآنية »(٥٩) فأتوا بكتاب من عند غير الله أعدل منه إن كنتم صادقين .

وكم للشيخ النورسى من بيان لإعجاز دساتير القرآن ، كما لغيره تحت عنوان (شريعة القرآن من دلائل إعجازه) ، وعنوان (الإعجاز التشريعى للقرآن) ، ويفتح الله ما يشاء .

هذا ومن قارن بيانات العلماء تبين له الجديد عند النورسى من جهة وعاية الجانب العلمى بطريقة عقلية وواقعية أكثر من غيره وإن كان لغيره التميز بالروائع أيضاً .

الإخبار بالمغيبات :

— يخبر القرآن الكريم عن الماضى خبر الحاضر الناظر . ويجعل تلك الأخبار مقدمة لمقصده ، بخلاصة الحادثة الطويلة مع لمس العقدة الحياتية فيها ، فى إيجاز وعلو فى الغرض — لا مجرد تسلية — فلا تجد حشوا كما لا تجد نقصاً ، وتجد فى ذلك الصدق كله والهيمنة البالغة حد التصحيح لما يكون مزيفا ، ومن الاعتداد بالنفس والثقة الكاملة المطلقة وبشجاعة المتحدية ، وليس ذلك إلا للكلام العليم الخبير . على لسان أمى لم يقرأ كتاباً ولم يجلس إلى معلم ولم يكن بين ظهرانى أهل العلم بهذه المغيبات إن كان هناك أهل علم صحيح كامل عالى الهدف ربانى ، فانظر أخباره من أن آدم عليه السلام إلى خير القرون . وقارن ما تجده مشتركا بينه وبين التوراة والإنجيل لترى بيانه فوق بيانهما وإظهاره الكثير مما أخفاه أهل الكتاب ، وحكمة الحق الصائب الفصل فيما اختلفوا فيه، وهيمنته ، إلى آخر ما تجده وتراه(٦٠) .

— وبالنسبة إلى إخباره بغيب المستقبل انظر إلى قوله (ولن تفعلوا) [البقرة: ٢٤] يعنى لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله تجده قد رمز إلى الإعجاز بهذا الإخبار بالغيب، وكان كما أخبر .

كأنه يقول : إذا كنتم أمراء الفصاحة والبلاغة وأشد الناس إحتياجا إليها وعجزتم فإن غيركم عاجز من باب أولى . ويتضمن إشارة إلى أن نتيجة هى أنه كما لم يكن الاقتدار على نظيرها فى الزمان الماضى لا يكون فى المستقبل إلا العجز عن مثلها(٦١) .

وانظر إلى قوله (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) [البقرة : ٦]، وأعلم أن أشهر معانى الموصول العهد كالألف واللام، فهنا إشارة إلى صناديد الكفر أمثال أبى جهل وأبى لهب وأمية بن خلف وقد ماتوا على الكفر، ففى الآية إخبار عن الغيب، وأمثال هذا لمعات يتولد عنها نوع من الإعجاز (٦٢) .

وزد ما تشاء من هذا الباب من النورسى، أو من غيره — زيادة تقرير وتوكيد — كأن تقول : أخبر القرآن عن مستقبل أبى لهب وزوجه بالنسبة للموت على الكفر — فى سورة تثبت . وعن قرب وفاة النبى ﷺ فى سورة النصر، ولا حصر لمثل ذلك .

ودع عنك غوامض الإمام النورسى — كغيره — من أمثال قوله فى آية سورة الفتح آخرها إنها تشير بحروفها وتكرار أعدادها إلى أصحاب بدر وأحد وحنين وأصحاب الصفة وبيعة الرضوان وأمثالهم من طبقات الصحابة الكرام، كما تفيد أسرارا كثيرة بحساب الحروف الأبجدية والتوافق الذى يمثل نوعا من علم الجفر (٦٣)، فإن هذا لو صح وكان إعجاز الصحح علم الجفر وكان إعجازا، وهذا اتجاه غير مقبول، وغير معقول (٦٤) .

— وأضيف أن من الغيب ما انطوت عليه النفوس، فلا يعلمه النبى ﷺ، ولا غيره، إلا من طواه، وإلا من استودع ذلك السر، وقد أخبر عنه القرآن الكريم مثل ما فى قوله تعالى (ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) [المجادلة : ٨] وما كذبوه فى ذلك . إلى آخر ما هو كثير وكثير، عند النورسى، وعند العلماء، مع تفاوتهم أحيانا فى الجزئيات .

— وقد يكون الإخبار بغيب بطريقة لا تتضح إلا للمتأمل المتأنى،

كمثال سورة النصر، وكالإشارة إلى أن أبناء النبى ﷺ لا يبلغون مبلغ الرجال، بقوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) [الأحزاب : ٤٠]، وكان الأمر كذلك — وقال النورسى : إنه كما أن هذه إشارة إلى أن نسله ﷺ لا يدوم من جهتهم، فإن لفظ (رجال) يشير إلى أنه سيدوم من النساء دون الرجال، وقد وقع كذلك (٦٥)، وهذا الشق — فيما أظن — من جديده .

الإعجاز العلمى :

فيما يلى «لمعة من الإعجاز القرآنى، تلمع فى وجه معجزات الأنبياء» (٦٦) عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى : «قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم» [الأنبياء : ٦٩].

« هذه الآية تبين معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفيها ثلاث إشارات » :

أولاها : النار — كسائر الأسباب — ليس أمرها بيدها، فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها، فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أمرت بعدم الحرق .

ثانيتها : أن للنار درجة تحرق بيرودتها، أى تؤثر كالاحتراق، فالله سبحانه يخاطب البرودة بلفظة (سلاما) بأن لا تحرق أنت كذلك إبراهيم، كما لم تحرقه الحرارة . أى أن النار فى تلك الدرجة، تؤثر ببرودتها كأنها تحرق، فهى نار وهى برد .

نعم إن النار — كما فى علم الطبيعيات — لها درجات متفاوتة، منها «درجة على صورة نار بيضاء لا تنشر حرارتها بل » [تسلب] الحرارة مما حولها، «فتجمد بهذه البرودة ما حولها من السوائل، وكأنها تحرق

ببرودتها . وهكذا الزمهرير لون من ألوان النار تحرق ببرودتها، فوجوده إذن ضرورى فى جهنم التى تضم جميع درجات النار وجميع أنواعها .

ثالثتها : مثلها الإيمان الذى هو (مادة معنوية) يمنع مفعول نار جهنم، وينجى المؤمنين منها ، وكما أن الإسلام درع واق وحصن حصين من النار ، كذلك هناك (مادة مادية) تمنع تأثير نار الدنيا ، وهى درع، (أمان منها)، «لأن الله سبحانه يجرى إجراءاته فى هذه الدنيا — التى هى دار الحكمة — تحت ستار الأسباب ، وذلك بمقتضى اسمه (الحكيم)، لذا لم تحرق النار جسم سيدنا إبراهيم عليه السلام مثلما لم تحرق ثيابه وملابسه أيضا، فهذه الآية ترمز إلى :

« ياملة إبراهيم اقتدوا بإبراهيم كى يكون لباسكم لباس التقوى وهو لباس إبراهيم ، وليكون حصنا مانعا ودرعا واقيا فى الدنيا والآخرة تجاه عدوكم الأكبر النار، فلقد خبأ سبحانه لكم مواد فى الأرض تحفظكم من شر النار ، كما يقيكم لباس التقوى والإيمان الذى ألبستموه أرواحكم شر نار جهنم . . فهلموا واكتشفوا هذه المواد المانعة من الحرارة واستخرجوها من باطن الأرض والبسوها» .

وهكذا وجد الإنسان حصيلة بحوثه واكتشافاته مادة لا تحرقها النار، بل تقاومها فيمكنه أن يصنع منها لباسا وثيابا ، فقارن هذه الآية الكريمة وقس مدى سموها وعلوها على اكتشاف الإنسان للمادة المضادة للنار ، واعلم كيف أنها تدل على حلة قشيبة نسجت فى مصنع (حنيفا مسلما) لا تتمزق ولا تخلق ، وتبقى محتفظة بجمالها وبهائها إلى الأبد»[٦٧] .

وذكر النورسى العديد من الأمثلة ببيان رائع ، وترجم عن معان إشارية رأيت بعضها . غير أنى أرى مثل هذا إشارة إلى أمر غيبى ما عرفناه ولا عرفنا إشارة إليه إلا بعد ما حصل وانقدح فى الذهن

أن القرآن يشير إليه بخلاف ماعرفنا إشارة القرآن إليه ثم انتظرناه فتحقق كما أشار القرآن ، كما فى (ولن تفعلوا) مثلا .

وقال الأستاذ الدكتور إبراهيم عبدالرحمن خليفة رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة فى إحدى الحلقات العلمية (إن الإعجاز العلمى ليس فى إيراد الظاهرة بل فى إيراد طريقة حصولها لو كان). لكل هذا أرى أن تجعل الآيات المشيرة إلى المكتشفات من آيات الإخبار الإشارى ، أشارت إلى ماكان غيبا وتحقق ، فتبقى داخلة فى أحد وجوه الإعجاز .

ولم يشأ النورسى أن يوسع الكلام فى الإشارات العلمية فى كتابه (الكلمات) فتكلم بسرعة خاطفة عن الإشارة إلى (القطار) بالآية الكريمة (وخلقنا لهم من مثله [أى مثل الفلك] ماير كبون)[٦٨] ، وكذا بالآية الكريمة (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود)[٦٩] وكأنى به يقصد بأخدود النار ذات الوقود القطار بوقوده، وهذا عندى فى غاية الغرابة ، كما ذكر أن الكهرباء مشار إليها بالآية الكريمة : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ...)[٧٠] ، فمثل هذا غلو منه رحمه الله ، فيكفينا من ذلك ماكان مجلوا ، لاتردد فى بهائه وإعجازه .

وأما موقف النورسى مما كان فى نظر أهل العلم الحديث بعكس الإعجاز العلمى أى كان فى تصورهم منتقدا على القرآن فقد شرحه فأبان إعجازه وأنه ألجأ الفلاسفة العنيدين إلى الرضوخ[٧١] . فجزاه الله خير الجزاء .

وجه إلى الأذن والنفس : الروعة والتلذذ وعدم السأم وسهولة الحفظ — وحظ العامى :

ذكر النورسى أن القرآن الكريم «يبين إعجازه حتى لأولئك الذين لايملكون سوى قدرة الاستماع من دون أن يقدروا على التوغل فى الفهم من عوام الناس» وقال «فتراهم يصدقون إعجازه ويشعرون به بمجرد سماعهم له»(٧٢).

وقال : «إن العامى الجاهل الذى لايفهم شيئا من معانى القرآن الكريم يشعر بإعجاز القرآن من عدم سأمه فى التلاوة، فيحاور ذلك العامى الجاهل قائلا : إن الاستمرار على تلاوة هذا القرآن لا يولد السأم ، بل تزيد كثرة تلاوته حلاوته ، بينما لو استمعت إلى قصائد جميلة رائعة لمرات عدة فانى أشعر بالملل ، لذا فالقرآن ليس بكلام بشر بلا شك»(٧٣).

وقال : «بل حتى المرضى والمحتضرين فى سكرات الموت ممن يتألمون بأدنى الكلام، تراهم يستمعون إلى القرآن الكريم وتنزل آياته على أسماعهم كأنه السلسبيل ، وبهذا يشعرون بإعجازه»(٧٤).

وذكر القاضى عياض أن من وجوه الإعجاز — الثانوية — أو عند بعضهم — (الروعة) التى تلحق قلوب سامعيه و (أسماعهم) عند سماعه ... وقال : «ويدل على أن هذا شىء خص به أنه يعترى من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره ، كما روى عن نصرانى أنه مر بقارىء فوقف يبكى فقيل له : مم بكيت ؟ قال : للشجا والنظم»(٧٥) ، ويبدو لى أن المراد بالشجا والنظم ذلك التأثر بنغم وجرس الكلمات ومذاقة الحروف التى صرح عبد القاهر الجرجانى أنها تؤثر فى زيادة سمو الكلام ورفعة شأنه ، والتى نقول إنها فى القرآن بالغة من الحسن والجمال حد الإعجاز .

ومن تلك الوجوه أيضا (أن الله تعالى جعل القرآن فى حيز المنظوم ولم يكن فى حيز المنثور لأن المنظوم أسمح فى الآذان)(٧٦) .

ومنها أيضا «أن قارئه لايمله وسامعه لايمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، لايزال غضا طريا ، وغيره من الكلام ولو بلغ فى الحسن والبلاغة مبلغة يمل مع الترديد ويعادى إذا أعيد ، وكتابنا يستلذ به فى الخلوات ويؤنس بتلاوته فى الأزمات وسواه من الكتب لايوجد فيها ذلك حتى أحدث أصحابها لحونا وطرقا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها ، ولهـــذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه (لايخلق على كثرة الرد)(٧٧) .

وقال النورسى: «إن الأطفال الذين يرغبون فى حفظ القرآن الكريم يظهر لهم إعجازه فى قدرتهم على حفظه فى عقولهم اللطيفة الصغيرة ، على الرغم من وجود مواضع متشابهة تلتبس عليهم ، فتراهم يحفظون القرآن الكريم بكل سهولة ، ويسر ، بينما يعجزون عن حفظ صحيفة واحدة من غيره»(٧٨) ، يعنى فى مثل زمن ذلك الحفظ القرآنى، وقد رأيت من أطفال باكستان من قرب من الختم وهو لا يعرف جملة واحدة عربية بمعناها ، وهذا أعجب بل رأيت الكتاتيب والكثيرين من صغارهم على هذه الشاكلة وسبحان الله .

وقال عياض فى وجوه الإعجاز : «ومنها تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه وتقريبه على متحفظيه ، قال الله تعالى : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠] وسائر الأمم لايحفظ كتبها الواحد منهم فكيف الجماء على مرور السنين عليهم ، والقرآن ميسر حفظه للغلمان فى أقرب مدة»(٧٩) ، والحمد لله على نعمته ونسأله العلم النافع والعمل الصالح والذكرى .

لفظ الجلالة ، أو ما تكرر من لفظ الجلالة ولفظ الرب . فتجد المكرر من ذلك فى أى صفحة متعامدا بعضه فوق بعض فى صف واحد أو فى أكثر من صف ، وكما أخذ النورسى إشارة إلى اسم الكلب من التناظر السابق أخذ من التوافقات إشارة — وعنده توافقات أخرى غير لفظ الجلالة والرب — فقال : « أما التوافقات فهى إشارة إلى الإتفاق والاتفاق أمارة على الاتحاد وعلامة الوحدة ، والوحدة تدل على التوحيد ، والتوحيد أعظم أساس من الأسس الأربعة للقرآن الكريم »(٨٦) .

فأقول : قد رأيت بنفسى ذلك التوافق فى النسخة المذكورة ، لكن فتحتها غير قاصد صفحة بعينها ، فجاءت ص١٣٢ وبعد تأملها أبديت الملاحظات الآتية : الدوائر التى حول أرقام الآيات ثمانى دوائر من الآية (٤٥) حتى (٥٢) جاءت كبيرة إلا حول (٤٦) فصغيرة ، وحرف النون فى ختام الفواصل صغير إلا فى موضعين عند (٤٨) و(٥٢) ، وهو فى الموضع الثانى أكبر منه فى الموضع الأول ، والدائرة حول (٤٨) موضوعة بجوار النون أما حول (٥٢) ففوق النون ، ولو جعلت النون عند (٥٢) بحجم المواضع الستة صغيرة ووضعت الدائرة بجوارها صغيرة أو كبيرة ، لبقى من السطر شىء .

فمحافظة على تحقيق الموازاة المنشودة والتوافق المذكور فعلت كل هذه التصرفات عمدا — فيما أظن — فلا يكون إعجازا ، بل صنعه ، وميزة لمن ابتكرها .

وقد سبق للشيخ أنه مقام خطابى ، وأن كثرة الجزئيات والأنواع لا تكون صدفة ولا صنعة لعقل جزئى محدود لا يحيط بمثل ذلك .

فأقول أخيرا : إذا لوحظت الجملة الأخيرة للشيخ ، ولوحظ أن الوجه المذكور قد تيسر فى كتاب جاء به أمى — ﷺ — وخطر بالبال أن

غيره لا يبلغ شأوه فى هـذا : كان إعجازا ، ولكن لا نتعصب له ، ولا نحتاج إليه ، إذ غيره بل بعض غيرة قاطع بإعجاز هذا الكتاب العزيز .

وعندما نقبل الوجهين الأخيرين فنجد كل نسخة من نسخ المصحف تقيم وجها فتلغى ما فى الأخرى لأنهما لا يمكن أن يجتمعا فى واحدة — وإلا لتوصل النورسى إلى جمعها — نقول إن هذا لا يضر ، لأن ما يلغى يحل الآخر محله على سبيل البدل .

وكأنى بهذا يشبه ما إذا قرأت (ولا أدراكم به)(٨٧) فكانت نفيا ولا تستطيع أن تجعل منه إثباتا وإذا قرأت (ولأدراكم به)(٨٧) كانت إثباتا لا تستطيع أن تجعله دالا على النفى ، فهما معنيان قرآنيان يتبادلان الموقع المخصص للكتاب ولا يجتمعان فى نسخة واحدة ، والله تعالى أعلم بالصواب(٨٨) .

خاتمـــة

إذا كانت الموازاة ونحوها أمرا ضعيفا فى نظرنا وكذا الاستنباط على طريقة الجفر فإن قوة الإمام النورسى وتفرده وإشراقاته فيما لمسناه شىء لا أعلم له نظيرا تعبيرا ومعانى .

وقد رأينا — جملة حينا وتفصيلا حينا — أنه درس النظم درسا فائقا للغاية من جوانبه العـــديدة ، واكتشف إمالة الكلام ظاهرا إلى ما ينافى الدليل ، وتكلم فى القدر المعجز بطريقة تطبيقية عجيبة ، وتفتحت له عيون وجوه جديدة من الإعجاز ، ودافع عن كل ما رآه ، وأجاب عما قد يثار ، وعرض الوجوه المعروفة للإعجاز ففتح لها نوافذ جديدة ، كفتحه من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نافذة باهرة إلى الإعجاز العلمى — إلى غير ذلك — ، واستخرج لطائف لا أظنها سنحت إلا له ، وجدد عرض بعض الوجوه فجاء كأنه يعرض لأول مرة كما تراءى لى فى الإعجاز الدستورى .

وإذا كانت هذه الخاتمة إشارات خاطفة فإن هذا البحث كله على هذه الشريطة .

والإمام النورسى جدير بمواصلة دراسة أفكاره ، والتزود من فتوحاته .

نفعنا الله تعالى به وبأمثاله . وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الحواشى

(١) المكتب المذكورة مطبوعة رأيتها والترجمة ملخصة من كتاب (بديع الزمان سعيد النورسى — نظرة عامة عن حياته وآثاره) تأليف إحسان قاسم الصالحى ط ٣ الوفاء بالمنصورة ١٩٨٨ م ص ٩ — ٦١ ، ٢٥٥/٢٥٦ .

(٢) راجع مذكرة فى إعجاز القرآن الكريم للشيخ عبد الرحيم فرج البلينى ص ٢٠١ بالآلة الكاتبة مسحوبة على استنسل ، وكتاب إعجاز القرآن للدكتور الشيخ السيد محمد الحكيم ص ٤٠ — ٤١ مطبعة دار التأليف سنة ١٣٩٨ هـ .

(٣) المكتوبات للنورسى ترجمة الصالحى ص ٥٠٨ .

(٤) السابق ٥٠٩ .

(٥) (٦)، (٨)، (٩) شرح همزية البوصيرى لابن حجر الهيتمى ص ١٤٣ ط التقدم العلمية سنة ١٣٢٦ هـ .

(٧) المدثر : ٢١ .

(١٠) الأنبياء : ٤٦ .

(١١) الكلمات للنورسى ترجمة الصالحى ٤٢٦ — ٤٢٧ .

(١٢) سورة النور : ٤١ .

(١٣) المكتوبات ٥٠٦ — ٥٠٧ .

(١٤) انظره ص ١٩٠ — ١٩٣ فى سرد ما ذكره السيوطى ، ثم ص ٢٤٧ — ٢٤٩ فى سرد الأربعين التى زادها - ثم شرح منها ما شاء الله إلى ص ٦٨١ ، والكتاب تأليف أحمد عز الدين عبد الله خلف الله الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م السعادة .

(١٥) انظر الكلمات ص ٤٢١ إلخ .

(١٦) انظر المكتوبات ٥٢٢ إلخ .

(١٧) إشارة الإعجاز فى مظان الإيجاز للنورسى ترجمة وتحقيق الصالحى ص ٢٣ .

(١٨) السابق : ١١٨ .

(١٩) راجع إشارات السابق ومحاكمات عقلية فى التفسير والبلاغة والعقيدة للنورسى ترجمة الصالحى ص١١٦ طبعة أولى سنة ١٤١١ هـ مطبعة منير بغداد .

(٢٠) أخذت هذه الفكرة عن المدارس الثلاث من كتاب (البلاغة العربية فى ثوبها الجديد) علم المعانى ج ١ ص ١٥ — ٢٦ للدكتور بكرى شيخ أمين ط ٣ مايو ١٩٩٠ م دار العلم للملايين بيروت .

(٢١) راجع المكتوبات ٤٠٧ إلخ بأمثلة مشروحة.

(٢٢) البقرة : ٣ .

(٢٣) الكلمات ٤٢٧ — ٤٢٨ وانظر أيضا إشارات السابق ٥٣ — ٥٥ وفيه زيادة .

(٢٤) هنا اقتباس من سورة القمر : ١٢ .

(٢٥) الذاريات : ٢٢ .

(٢٦) جملة من معنى حديث ابن عباس وغيره عند أحمد وغيره ، راجع تفسير ابن كثير سورة القمر الآية ٤٩ .

(٢٧) فى حديث أحمد والشيخين أن الملك يؤمر بنفخ الروح فى الجنين ويؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد . راجع تفسير ابن كثير سورة المؤمنين الآية ١٤ .

(٢٨) انظر إشارات الإعجاز : ١٢٤ .

(٢٩) انظر السابق : ١٢٢ — ١٢٣ بالآية ٣٦ آل عمران .

(٣٠) انظر السابق ١٢١ — ١٢٢ .

(٣١) انظر السابق : ١٢٤

(٣٢) انظر السابق

(٣٣) انظر السابق : بالآيتين الأوليين من سورة البقرة .

(٣٤) » » : ١٢٢ بالآيتين : ١١ ، ١٤ من سورة البقرة .

(٣٥) » » : ١٢٠ والهامش الثانى فيه .

(٣٦) » : ١٢٥

(٣٧) » ١٧٦ — ١٧٨ ومحاكمات عقلية السابق : ٢٦

(٣٨) وخلاصة ذلك أن الكلام لا يخرج عن الحقيقة قطعا إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام ، وأن المجاز إذا كان بلاقرينة كان معنى ذلك أنه لاقرينة تمنع الحقيقة فلاتلغى ، وأن الأخذ بهما معا حينئذ كان لنكتة المجاز وأصالة الحقيقة ، وأن المجاز ـ لنكتة ـ ساوى الحقيقة فأخذ بهما معا ـ للنكتة والأصالة كما عرفنا ، وأن الجمع بين الحقيقة والمجاز كالجمع بين حقيقتين لا مانع منه فى إرادة الإفادة ، وأن الممنوع فى بعض المذاهب الفقهية ـ لا فى جميعها ـ هو الجمع بينهما فى إرادة الاستعمال ، ويستفاد بتلك القواعد فى تفسير (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) [يس : ٣٨] .

فقال الفلاسفة والمفسرون فى ضوء علم الفلك القديم : إن هذا الجرى لا من ذاتها بل بفلكها يدور بها حول الأرض فينتج الشروق والغروب ، وعليه فهو جرى مجازى ، بلا قرينة ، ونقول فى ضوء الحقيقة العلمية الجديدة وفى ظل القواعد السابقة : يراد بجرى الشمس حقيقة وهو جرى إلى النسر الواقع ، ولا علاقة له بالشروق والغروب ، كما يراد به مجازة ، وهو جريها الظاهرى الذى ينشأ عنه الشروق والغروب ، وحقيقته هى جرى الأرض حول الشمس ، فنسب إلى الشمس مجازا لهذه الملابسة ظاهرا ، لا حقيقة وباطنا ، فبادىء النظر الحديث يرى الكلام مخالفا

الحقيقة ماثلا عنها وعن دليلها ثم بالتأمل ظهر ما قلناه ، وقال النورسى أن مما شاة القرآن لخطأ الحس عند القدماء ليس إقرار للخطأ ولكنه إمهال له حتى تظهر الحقيقة والقول هو هو فى القرآن لم يتغير ولم يصدم فريقا منها، ولو أن القرآن كشف الحقيقة من أول الأمر لأعنتهم فكذبوه أو غالطوا أنفسهم فيما يعتقدون ، ولو صارحهم بها ليدلهم على قدرة الله اسع علمه وعجيب تقديره لكان الدليل أخفى من الدعوى ، وهذا يخالف المنهج السوى فى الاستدلال ، فقام إرشاد القرآن على الإفادة من الظاهر ومن الكناية ومستتبعات التراكيب جاعلا التقدم العلمى قرينة تكشف فى الوقت المناسب حقيقة الأمر لأهل التحقيق معبرا بعبارة على غاية من القبول عند السابقين واللاحقين ، وسبحان الله العلى القدير الحكيم الخبير العليم العظيم .

وإن هذا لإعجاز وبلاغ مبين [راجع المبدأ السادس والثانى عشر من بحث بعنوان (مبادىء مدارسة التفسير العلمى) وبحث (المعانى التى تتحملها العبارة تعتبر مرادة) فى كتاب (بحوث فى علوم القرآن الكريم) كلاهما لكاتب هذا البحث، وأهم مراجعها روح المعانى للآلوسى ج١/١٤٩ وعقود الجمان للسيوطى بشرح المرشدى ٢/٦٨ — ٦٩ وإشارات الإعجاز للنورسى طبع دار المحراب ص ١٨٠ — ١٨٢ والإسلام فى عصر العلم الغمراوى طبع دار الكتب الحديثة إيداع سنة ١٩٧٨ ص ٢٠٨، ٢٥٩ ، ٢٨٣، ٢٩٤ ، ٣٠٠

وقد راجعت أيضا إشارات الإعجاز ترجمة وتحقيق الصالحى ص١٧٦ إلى ١٧٨ ومحاكمات عقلية السابق] .

(٣٩) انظر إشارات الإعجاز تحقيق الصالحى السابق ٤١ — ٤٤

(٤٠) إستخرجت ماذكرت من الطبائع وحروفها من أوائل لسان العرب

لابن منظور ، وقد ذكر بعض أسماء كبار العلماء — فراجعة ، فإنه ممن قدر وأكد وشاهد .

(٤١) إشارات الإعجاز السابق .

(٤٢) هنا إقتباس من بعض المواضع النورسية — لا محض إنشائى .

(٤٣) ، (٤٤) إشارات ... السابق .

(٤٥) كذلك قال النورسى .

(٤٦) كما ورد فى صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود ، ومما قيل فى معناه أن الظهر ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، والبطن ماتضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أرباب الحقائق ، والحد أى المنتهى فيما أراد الله من معناها أو مقدار حكمها من الثواب والعقاب ، والمطلع ما يتوصل به إلى — أو يوقف به على — معرفة ما غمض من معانيها وأحكامها ، راجع الإتقان للسيوطى النوع ٧٨، إحياء علوم الدين للغزالى فى آداب التلاوة وفى قواعد العقائد ، مع تخريج العراقى .

(٤٧) المكتوبات ٢٦٧ — ٢٦٨

(٤٨) الكلمات ٥٢٨ — ٥٣٠

(٤٩) راجع (دراسة فى تفسير النسفى فى سورة الرحمن) لمؤلف هذا البحث ، أو الأمالى المسمى غرر القلائد للسيد المرتضى ١/١٢٧ وتفسير النسفى وشرح عقود الجمان السابق ج١/٢٤١

(٥٠) ، (٥١) ، (٥٤) ، (٥٥) ، (٥٦) الكلمات — وانظره — ٤٧٣، ٤٧٤ ، (٥٢) ، (٥٣) البقرة : ٤٣ ، ٢٧٥

(٥٧) ، (٥٨) ، (٥٩) السابق : ٤٧٤ — ٤٧٥

(٦٠) راجع الكلمات ٤٦٨ — ٤٧٠ ، ٤٧٩ . ٤٨٠

(٦١)، (٦٢) انظر إشارات — السابق : ١٨٣، ٧٣

(٦٣) اللمعات للنورسى ترجمة الصالحى : ٤٦

(٦٤) فإن الجفر والجامعة لوحان للقضاء والقدر، أو رموز تكشف لمن يفهمها عن أسرار، أو علوم الغيب، أو علوم من الغيب إقتنصتها أعمال القلم فى القرطاس، أو كتابان أحدهما ذكره الإمام على كرم الله وجهه وهو يخطب والآخر أسره إليه النبى ﷺ وأمره بتدوينه، أو علم الجفر علم له عند عارفيه أوضاع بعضها على مذهب أفلاطون، هذه هى جملة وكل ما عرفت عن علم الجفر، فمن يقبل ؟ ممن يعقل ؟، راجع كتابى (دراسات فى علوم القرآن ومناهج المفسرين) أو أبجد العلوم للقنوجى ج ٢/٢١٤—٢١٦، وعما قلته : « أحقا سبق أفلاطون بشىء دال على غيب ولما جاء سيدنا محمد ﷺ بالقرآن من عند الله تعالى حدث فى ظله ذلك الدال، بالشكل الأفلاطونى وبأشكال أخرى ؟! » ردا على من يقول إن علم الجفر من فروع علم التفسير.

(٦٥) انظر الكلمات السابق : ٤٨٠

(٦٦) جملة مقتبسة من الكلمات : ٢٩٦

(٦٧) السابق — وانظره — ٢٨٨ — ٢٨٩

(٦٨) يس : ٤٢ (٦٩) البروج : ٤ — ٧

(٧٠) النور : ٣٥

(٧١) الخطبة الشامية للنورسى ترجمة الصالحى: ٤١ أشارت إلى تأليف له فى ذلك.

(٧٢) المكتوبات : ٢٣٩ (٧٣)، (٧٤) السابق : ٢٤٠

(٧٥) الشفا للقاضى عياض — وانظره — ١/٢٣٠—٢٣١ يطلب من مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بدون تاريخ.

(٧٦) انظر السابق ٢٣٦ (٧٧) السابق ٢٣٣

(٧٨) المكتوبات السابق.

(٧٩) الشفا السابق ٢٣٦، ٢٣٧

(٨٠)، (٨١)، (٨٢) المكتوبات السابق هامش رقم ٢ وما تحته ص ٢٤٠

(٨٣)، (٨٤)، (٨٥) السابق ص ٢٤١ وراجعه، وراجع هامشه رقم ٤ ص ٢٤٢

(٨٦) السابق هامش ص ٤٩٢

(٨٧) الآية ١٦ سورة يونس على نبينا وعليه الصلاة والسلام وعلى جميع الأنبياء، والقراءتان سبعيتان، انظر إتحاف فضلاء البشر للبنا ص ٢٤٧ ط المشهد الحسينى ١٣٥٩ هـ.

(٨٨) وعند الإمام النورسى من الوجوه الكثير ومن الجزئيات الأكثر، واقتصرت على ما رأيته محققا لغرض محدود، والحمد لله فى البدء والختام.